المبحث الثاني

بعض الأبعاد الغائبة

منذ أن خلق الله آدم وعلمه الأسماء واستخلفه في الأرض والتاريخ الإنساني سائر نحو غايته التس رسمها البارىء جل شأنه. والناس صنفان: صنف ينطلق في ممارسة دوره في الحياة من تعاليم الأنبياء ورسالات المرسلين، وصنف ينطلق من أوهامه أو أفكاره أو شهواته ورغباته أو رؤية آبائه وأجداده:

الصنف الأول:

يرى التاريخ ناتج تفاعل مبارك بين الله والأنبياء والكون والإنسان.

والثاني: يرى التاريخ ناتج صراع بين الإنسان والطبيعة ويتجاهل أو ينكر أو يجحد للدور الإلهي أو يتجاوزه أو يتخذ مما يشتهي آلهة زائفة يحاول أن يسند إليها دورا لا يعرفه ولا تعرفه، وما كان لها أن تمارسه ولا تستطيعه. ولذلك كان "الدين الحق" "الدين الخالص" ضرورة لا غنى عنها لتصحيح منطلقات الإنسان وبناء رؤيته وتطمين قلقه، وإعطائه الجواب الصحيح عن عن الأسئلة الضرورية النهائية (2) التي لا يستقيم عقله ولا يستقر وجدانه دون الوصول إلى الجواب الصحيح عنها وليس من شك في أن الانطلاق من الدين كأساس للفكر والممارسة معا، وفي مختلف جوانب الحياة، هو ركيزة المسلم الأولى ومنطلقه الأساسي، لأن الدين منهاج وشرعة شاملان يُعنى بقضايا الإنسان وبالمصير الإنساني في كليته، ولهذا أنزل الله تعالى القرآن نصاً مطلقاً محفوظاً معصوماً يتسع لكافة قضايا الوجود وحركته(1)، على مستوى الكون الطبيعي المسخر على الإنسان المستخلف معاً، فهو كلام تعالى والكتاب الشامل المحيط ، الذي قال الله سبحانه وتعالى فيه: ﴿ ويوم نبعث في كل أمة شهيدا عليهم من أنفسهم وجئنا بك شهيدا على هؤلاء ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين ﴾ [النحل: 89/16].

الشهادة والشهود: فربط الله بين كلية الكتاب وإحاطته بكل شيء ﴿ **تبيانا لكل شيء** ﴾ الآية ومسؤولية الشهود ﴿ **شهيداً على هؤلاء** ﴾ ومد الله نطاق الشهادة والشهود من بعد الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الأمة: ﴿ **وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا** ﴾ [البقرة: 143/2].

فمن شهادة الرسول المعصوم صلى الله عليه وسلم إلى شهادة "الأمة الوسط القطب" التي لا تجتمع على ضلالة والمؤهلة في طبيعة نسقها الحضاري لتتسع للعالم كله بعد ذلك، فالله سبحانه وتعالى بالغ أمره وهداه الديني إلى الناس كافة: ﴿ **هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليُظهره على الدين كله ولو كره المشركون** ﴾ [الصف].

والشهود: حضور مسؤول بالوعي وبالفعل معاً أو بتلازمهما في الواقع التطبيقي. ولكل واقع تطبيقي خصائصه الاقتصادية والاجتماعية والفكرية والمركبة بدورها على نسق حضاري محدد من جهة وعلى نسق محدد في الرؤية والتصور ومناهج العلم ومنطلقات البحوث من جهة أخرى. والقرآن الكريم . وحده . بحكم كونه نصا إلهياً مطلقا هو القادر على استيعاب وتصويب مختلف مناهج العلوم النقلية والعقلية الطبيعية والاجتماعية والإنسانية وغيرها، وتقويمها كذلك، وهو وحده بحكم عالمية رسالته القادر على استيعاب مختلف الأنساق الحضارية وتصويبها وتقويمها. فجمع الله سبحانه وتعالى لنا في ديننا القدرة على استيعاب مشكلات الأزمات الحضارية للإنسان والمشكلات المنهجية في علومه لإعادة صياغتها واستيعابها وفق الهدى ودين الحق. فمسؤوليتنا في الشهود أكبر مما هو "حاضر" في أذهاننا وتصوراتنا وممارساتنا أو هو متبادر إلى أفهام الكثيرين منا.

هناك أبعاد "غائبة" لا شك في ذلك فهي لا تزال مفتقدة في فكرنا وممارساتنا وهي "غائبة" نكتشفها من خلال "التقييم النقدي" لتطبيقاتنا الراهنة وممارساتنا قياسا إلى الأهداف المناطة بنا بحكم الشهود على الناس الذي حدد علةً لجعلنا أمة وسطاً، وهي الأهداف المحددة بغاية التنزيل المجيد ﴿ **الر كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد** ﴾ [ابراهيم:1/14].

وليس المهم أن لا يكون هناك أبعاد غائبة، بل المهم أن تكون محدودة وأن نكون قادرين على الكشف عنها.

فالغاية تمضي بإذن الله وإرادته بنا إلى صراط التوحيد المستقيم الذي يجعلنا قادرين على بناء أنفسنا وتأهيل أمتنا لإخراج أمم الأرض وشعوبها من الظلمات إلى النور بحيث تستطيع تجاوز قصور المناهج العلمية المنبتة عن الله وترديها الوضعي الذي يجعل منها مجرد علم بظاهر الحياة الدنيا وفلكياتها الجزئية، وكذلك تفكك الشخصية الإنسانية وانحلالها وقصور العقل الإنساني ومحدوديته ونسبيته. وعجزه عن تجاوز أزماته، فالظلمات الحضارية المعاصرة "ظلمات مركبة" وليست بسيطة إذ تمتد لتشمل مناهج الحضارات ومناهج ومعطيات العلم معاً فتتراكم الخبرات السلبية لنا وللعالمية الغربية المعاصرة بعضها فوق بعض مما يقتضي وعيا عميقا ومتسعا بذات الوقت للتعامل مع هذه الظلمات المركبة، وإلا فإننا في أحسن أحوالنا سنبدأ من حيث انتهى الغرب إلى حيرته هذه التي يتخبط الآن فيها ﴿ **أو كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور** ﴾ [النور :04/24].

إن مقابل مركب النور الذي يهدي الله له من يشاء ﴿ **الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم** ﴾ [النور35/24].

أولا: ضرورة الوعي الشامل:

إن قضية "الإصلاح والتغيير" قضية مركبة وليست بسيطة وعالمية ولم تعد إقليمية واتساقية تتطلب وعيا بشريا مركبا بمستواها، وهذا الوعي المركب لا يكون بالمستوى المركب الفاعل إلا "منهجيا" يأخذ بأبعاد الظلمات كلها: الظلمات الحضارية والعلمية . معا . على مستوى التنظير والتطبيق بشكل ينفذ عميقا إلى فهم خصائص الواقع المتغير، والعوامل الفاعلةفي تغيره والمحدثة لانحرافاته أو أزماته وذلك بغية معالجتها بمنهج كلي بعيد عن الأحادية والجزئية والمحدودية والقصور. وهذا شرط أولي لا بد لجميع العاملين في حقول الإصلاح والتغيير الاجتماعي من فهمه وإدراكه.

ثانياً: عالمية الأزمة تستدعي عالمية الحل:

وبما أن العوامل الفاعلة في متغيرات الواقع ليست محصورة(في مستوياتها الفكرية والمعرفية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية) بالخصوصية الجغرافية للمجتمعات المسلمة المعاصرة أي ليست مجرد عوامل محلية ولكنها جزء وانعكاس لأزمة عالمية بحكم التداخل الشامل بين مختلف الأمم والشعوب نتيجة ثورة المواصلات والاتصالات المعاصرة لذلك فإن استيعاب هذه العوامل المؤثرة عالميا والواردة إلينا عبر تداخلنا مع أنساق الحضارات الأخرى ومناهج العلوم المختلفة، يعتبر من المداخل الضرورية في فهمنا لما يحدث في واقعنا نفسه فتلك المناهج والأنساق الحضارية لم تنتقل إلينا في شكل أنظمة الحكم والمؤسسات الاقتصادية والاجتماعية فحسب، بل إنها أسهمت وتسهم في تشكيل عقليتنا على نماذجها لتنتهي بنا إلى ضوابط نسقها الحضاري والمعرفي فكل نموذج معرفي قابل لأن يعمم على الآخر عبر ما يسمى عادة "**بالغزو الفكري أو الغزو المؤسساتي**" خصوصا حين نكون في موقع الضعف أو الهامش من مركزية حضارية متنفذة طاغية بنسقها الحضاري والمعرفي على مستوى عالمي، وبوسائلها الإعلامية والاتصالية الجبارة.

ثالثا: نشأة فكر المقاربات والمقارنات:

نتيجة لما تقدم كان من الطبيعي أن تتولد لدينا إحدى قابليتين: قابلية الانتماء للمنتصر أو المتغلب كما يقول ابن خلدون أو تتولد لدينا حالات الرفض السلبي، فحالة قابلية الانتماء للمتغلب تبدأ بفكر "المقاربات" حيث تنزع الأمة المغلوبة إلى البحث عن صلات قربى مع فكر الغالب لأسباب عديدة وقد مررنا بهذه الحالة حين أخذنا نقارب الديمقراطية الغربية بالشورى الإسلامية مثلا متناسبين بذلك فوارق النموذج المعرفي والحضاري وآثارها في الفرق بين الديمقراطية ذات الجذر الفردي الليبرالي والقائمة على تقنين الصراع، وبين الشورى الإسلامية القائمة على وحدة الجماعة ونبذ الصراع وكذلك حين صرنا نقارب الاشتراكية بالعدالة الاجتماعية متناسين الجذر الطبقي للشتراكية كتدافع بين البشر والجذر الإسلامي للعدالة الاجتماعية وفق ضوابط التوزيع للثروة بين الفرد والجماعة بأحكام الزكاة والمواريث ومنع الاكتناز. وهناك مقاربات أخرى كثيرة قمنا في مجالات فكرية ومعرفية وفي نظم الحياة لا يتسع المجال لذكرها، وهذا كله ناتج عن تأثرنا بنسق حضاري ومعرفي متداخل في وعينا وثقافتنا بحكم الهيمنة العالمية.

كما أن هناك من لجأ إلى الرفض السلبي للنسق الحضاري القائم عبر الاكتفاء بالمقارنات بين ما لدينا وما لديهم فبالغ في تجمد ما لدينا على الجملة واعتبره الصورة المثالية بحيث طغى هذا التجمد الذاتي بطريقة دفاعية على تناول ما لدينا من تراث بالنقد والتحليل للكشف عن ضعفه وجوانب قصوره، ففهمنا وقراءتنا لتراثنا لم تبلغ من القوى . في الحقيقة . حد القدرة على تجاوز أزماته وإلا لكنا في وضع أفضل في مقابلة الحضارة المركزية المتغلبة ولم نكن في موقع الهامش الذي نتمرغ فيه الآن. كما أن الانطلاق من تلك المقارنات قد أوجد حالة غفلة عن حجم التداخل الحاصل بين الأنساق المعرفية والحضارية في عصرنا هذا.

وقد سبق لي أن شرحت بعض هذه الظواهر الفكرية في محاضرة نشرت بعنوان: "**الأزمة الفكرية المعاصرة . تشخيص ومقترحات علاج**" وورقة عمل بعنوان "**إصلاح الفكر الإسلامي: بين القدرات والعقبات**" وكلاهما قد طبع عدة طبعات في المعهد العالمي للفكر الإسلامي وغيره.

إذن فالقضية معقدة ومركبة تتناول مناهج المعرفة كما تتناول الأنساق الحضارية وتتجاوز المحلية إلى العالمية، ولهذا تأسس معهدنا ليتناول بالبحث العلمي والنسقي الحضاري وفي إطار العالمية المتداخلة والمتفاعلة هذه القضايا، فتأسس المعهد العالمي للفكر الإسلامي" لا ليقوم بالتبشير بالمبادئ الأساسية للإسلام في العالم . على أهمية ذلك . ولكن الكشف عن المنهجية الإسلامية القادرة على مساعدة العقل المسلم على تجاوز أزماته وإعادة بنائه وتشكيله وفق رؤية محددة للنظام المعرفي الإسلامي، والمنهجية القائمة على الجمع بين القراءتين قراءة الوحي وقراءة الكون ومناهج تعامل منهجية ومعرفية مع كل من الكتاب والسنة النبوية والتراث الإسلامي والتراث الإنساني.

رابعا: الحاجة إلى المنهجية:

ليس ما ندعو إليه ونعمل لتحقيقه مجرد التأكيد على وجوب تمسك افنسان بالمبادئ الأساسية الإسلامية وإن كان ذلك مهما ولا شك، بل لا بد من الخذ بمنهجية قادرة على مستوى عالمي على التحرك في الواقع والتأثير في مناهج العلوم والأنساق الحضارية فهذا هو "الغائب الأول" فعلاً. أما العقيدة فهي بحمد الله راسخة في القلوب ثابتة في النفوس، فالكل معلن بشهادة التحيدة، متقبل لما هو معلوم من الدين بالضرورة. كما أن مبادئ الإسلام على مستوى العبادات والمعاملات والسياسات الشرعية مقررة وواضحة في العديد من المراجع والمصادر. وكذلك أركان العقيدة من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآحر وبالقدر خيره وشره موضع اتفاق لدى الجميع. فلو أردنا الاقتصار على الحفاظ على ظاهر ما لدينا لما كان ثمة مبرر لعقد لقاءات وندوات، ولا كان ثمة مبرر لقيام المعهد العالمي للفكر الإسلامي وأمثاله من المؤسسات ولكنه البعد المنهجي الذي لا بد أن تتجه الجهود إليه، وبه ينبغي أن تقاس الحاجة والإنجاز كذلك لتكتشف الأبعاد الغائبة.

خامساً: هل يمثل وصول الإسلاميين إلى السلطة حلا أو منهجا:

لا يمكن أن يكون الوثوب إلى السلطة . وحده . حلاً . لمشكلات هذه الأمة، ولا يمكن أن يكون هو المنهج المطلوب لإصلاحها، إذ يكون المطلوب وقتها هو الوصول

إلى السلطة فقط لتطبيق ما لدينا من تراث فقهي على الناس وكان مطبقا قبل سقوط الخلافة العثمانية ولم يحمها ما صارت إليه ولم تحل سائر المشكلات، ولا علت كلمة الله ذلك وحده في أي دور من أدوار التاريخ، وادعاء ذلك تبسيط مخلّ للأمور من جميع نواحيها، فإن مجلة الأحكام العدلية كانت هي مجمع قوانين وأنظمة الدولة العثمانية ومع ذلك فإنها لم توقف النتيجة التي بلغتها، وهي التفكك والتلاشي في دول قطرية ضعيفة.

وقد يكون هذا التصور . على بساطته . صحيحا لو أن ازماتنا قد بدأت عند سقوط الخلافة العثمانية واجتياح الاستعمار الأوروبي المتعدد الجنسيات لديار المسلمين فقط، غير أن أزماتنا قد بدأت قبل ذلك بكثير، وفي ظل أشكال مختلفة من الأنظمة الإسلامية، وما كان ذلك الغزو الفرنجي والتتاري المتزامن من الغرب والشرق، قبل سبعة قرون تقريبا، وإخراجنا اللاحق من الأندلس قبل ما يزيد عن خمسة قرون وما انتهت غليه مختلف قضايانا ومنها قضية فلسطين وأغانستان إلا نتيجة لأزمات خانقة انهارت بنا من داخلنا وفي ظل سلطة إسلامية خلافة كانت أو سلطنة فلا يمكن أن تكون العودة إلى السلطة . وحدها . مقدمة للإصلاح، ولكن ذلك الإصلاح المنشود يجب أن يبدأ بمعالجة أسباب الخلل ترجع أولا إلى الفكر والممارسة، وفقه التديّن ونقصد بذلك ما لا يتعلق بأصل الوحي من الكتاب والسنة الصحيحة. فالخلل ليس في الدين . أو أصوله الموحاة . كما يرى اللادينيون . بل هي في فقه التدين به وممارسته وتطبيقه وتنزيله على الواقع.

لقد كتب الناس كثيرا حول الموجبات الدافعة لصعود المسلمين ولكنهم قبل أن كتبوا بعمق في أسباب التدهور والانهيار إذا يكتفي معظمهم بالنتيجة القائلة: إن المسلمين قد تدهوروا لأنهم فارقوا شرع الله وأنه لا يصلح آخر هذه الأمة إلا ما صلح به أولها. والقول صحيح وصحيح جداً ولكن كيف نفهم ما صلح به أولها ثم نطبقه على آخرها ؟ كيف نحوله إلى منهج قابل للتطبيق على الواقع المتغير الراهن ؟ هذه هي التساؤلات التي يدخل جوابها في دوائر "السهل الممتنع" .

سادساً: ما يصلح به أول الأمة:

إن أول هذه الأمة قد صلح بأمور ومحددات منهجية استمدت من خصائص كتاب الله تعالى وتطبيق وتنزيل على الواقع نبوي دقيق منها: عالمية خطاب، وحاكمية كتاب مهيمن، ونبوة خاتمة، وشريعة تخفيف ورحمة، وقلوب مؤلفة. إلا أن ذلك كله قد ارتبط بأمر إلهي وتقدير غيبي رباني في مكانه وزمانه، فألّف الله سبحانه وتعالى بين قلوب لم تكن لتأتلف ﴿ **وألّف بين قلوبهم لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألّفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم** ﴾ [الأنفال:63/8].

وجعل النبوة خاتمة فلا نبوة بعدها ولا عصمة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ **ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شيء عليما** ﴾ [الأحزاب : 33 / 40] .

وجعل الكتاب مهيمنا فلا رسالة بعده : ﴿ وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه ﴾ [المائدة : 48/5]

وجعل الشريعة شريعة تخفيفا ورحمة : ﴿ **وما جعل عليكم في الدين من حرج﴾** [الحج 22 / 87] ، ﴿ **الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون** ﴾ [الأعراف : 7/ 157 .

فما صلح به أولها كان أمرا إلهيا بتقدير محكم من العزيز الحكيم في زمانه ومكانه وآياته ، فليس من بعد ذلك رسالة أخرى ولانبوة جديدة ، ولاتأليف بقدرة الله الغيبية المباشرة للقلوب ، بل لابد من إيجاد وسائل ودوافع للتأليف ، فقد كانت تلك دفعة إلهية لها خصائصها ، واستمرت لتملأ زمانا امتد لعدة قرون ، ولتملأمكانا امتد مابين المحيطين الأطلسي غربا والهادي شرقا :﴿هوالذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين* وآخرين منهم لما يلحقوا بهم وهوالعزيز الحكيم﴾[الجمعة 62 / 3.2] .

سابعا : القياسات الخاطئة :

فقتاس بعض الحركات والأحزاب أنفسها على تلك المرحلة دون ملاحظة لتلك الخصائص والفوارق ومحاولة استنزال ذات النتائج التي تحققت للجماعة المؤمنة الأولى يحتاج إلى كثير من المرجعة والتصحيح لتقسيم أمورها ، ويتحقق التواصل مع تلك المرحلة ، بدلا من محاولة إعادة إنتاج ماحدث فيها من وقائع فذلك محال لأن التاريخ لايعيد نفسه ، كما قد يتوهم البغض ، بل هو صيرورة سائرة باتجاه غايتها التي رسمها العزيز العليم .

إذن فكيف توقف العطاء لدى هذه الأمة ، ولماذا كان الانقطاع عن التواصل مع تلك الدفعة الإلهية بفعل بشري حضاري ، الأمر الذي انتهى إلى الانهيار رغم وجود الخلافة الإسلامية وبالرغم من عدم وجود مراكز عالمية منافسة في تلك الفترات التاريخية السابقة ؟

ثامنا : الدنيويون والإصلاح :

وهناك فريق آخر غاب عنه بعض ما كنا نعتبره بديهيا ولا يسع متأملا إنكاره .

وهذا الغائب نلحظه فيما بدا للبعض من (الدنيويين) أن الغيب يجب أن يستبعد من شؤون الحياة ، وكان القرآن . عند هؤلاء . قد استنفد أغراضه فلم يعد فيه جديد ، وأن السنة قد استهلكت فليس فيها من مزيد على الفهم الفقهي ، أن طاقة الحامل الإنساني لهما قد تبددت فليس منتمدبد أو تجديد لها فتولدت عن هذا التصور ثلاثية نقيضة لثلاثية الدفع الإلهي أدت إلى مزيد من التدهور والانهيار . فعلى النقيض من "**القلوب المؤلفة**" سادت ظواهر التجزئة والانقسام على اسس مختلفة عشائرية وإقليمية وقطرية وعرقية ، مذهبية وطائفية ، فتعددت الفرق والأحزاب والحركات، وأصبحنا أمما يدافع بعضها بعضا، ويكفر بعضها بعضا، كل يدعي أنه أربى من الآخر بما يملكه من حق أو قوة أو قدرة على الاستيلاء :

﴿ ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها منبعد قوة أنكاثا تتخذون أيمانكم دخلا بينكم أن تكون أمة هي أربى من أمة يبلوكم الله به وليبين لكم يوم القيامة ماكنتم فيه تختلفون ﴾ [النحل : 16 / 92] .

فنحن لم نتراجع عن عالمية الإسلام ووحدة الأمة فحسب ، بل تفككنا إلى مستوى الجزئيات المتصارعة المتناقضة .

وعلى النقيض من حاكمية الكتاب وحجية السنة الصحيحة فب إطار كلّي وشامل للوحي ، قرآنا وتطبيقا ، تناولنا الآيات عضين وأعدنا الأحاديث بطريقة انتقائية ، نبدي ما نريد ، ونتجاوز ما لا نريد: خدمة لأهداف ظريفة وضيقة نضفي عليها الشرعيّة كما نريد، فأصبح مثلنا مع القرآن كمثل اليهود مع التوراة ﴿ **تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا** ﴾ [النحل:92/16].

فضللنا الطريق المستقيم إلى كلية الكتاب وتُهنا عن منهجيته، ففقدنا القدرة على الإحاطة بشموليّته وكلّيته فلم نهيمن به على متغيرات الزمان والمكان وصيرورة الواقع ولكنا جعلنا الواقع مهيمنا على القرآن والسنة يستمد منها بانتقائية عشوائية مبررات لانحرافاته، فعوضاً عن الارتفاع بالواقع إلى غايات النص وضبطه به، أفرغنا النص في الواقع، وبررنا الواقع به، فالنص حين يتنزّل على الواقع فليس من أجل تبريره، ولكن لتحويله وترقيته وإصلاحه، فلا ينبغي أن يستلب الواقع النص كما هو الحاصل اليوم ويخضعه لمتطلباته.

وتترابط وتتدتخل المقدمتين المشار إليهما وصلنا إلى النتيجتين السابيتين حيث فككنا نسق وحدتنا الإيمانية والحضارية، وجزأنا النصوص القرآنية والأحاديث النبوية بطريقة انتقائية أفقدتنا التواصل مع غاية الشهود التي أودع الله أمانتها في أعناقنا ففقدنا بالتالي التواصل معه . سبحانه وتعالى . فكيف يمكن أن يؤلف بين قلوبنا كما ألف بين قلوب أسلافنا من وقد قطعنا الصلة به . على اختلاف توجهاتنا . كما قطعنا الصلة بمتطلبات الشهود الديني الحضاري ؟

إذن من حيث أفلت من أيدينا زمام الشهود الديني والحضاري يجب أن نعود للإمساك به منطلقين من هيمنة النص القرآني وبيانه النبوي في كليته على الواقع في شموليته ولكن ما هي شموليته الواقع ، وما كلية النص؟ وكيف يمكن تحقيقها؟ نعني "**بشمولية الواقع**" أن الواقع أمر مركب لا كما يتوهم البعض أنه بسيط فيميلون عليه على الدوام محتجين به أو له أو عليه. فالواقع في شموليته عبارة عن زمان ومكان وإنسان وأحداث ونظم وتشريعات وأطر للعلاقات في مختلف المستويات

يتفاعل هذا المركب المعقد مع وجود ذهني وتصورات نظرية ومنطلقات إيديولوجية أو عقدية أو سواها . ولذلك فإن التعامل مع الواقع تعامل مع هذا المزيج كله مضافا إليه بحث معرفي في التاريخ وما أثر فيه واستشراف للمستقبل وما يتوقع أن يخالطه.

قد كان الكثير من علمائنا لهم جولات و صولات في تحديد ما يريدونه بـ "**الواقع**" و"نفس الأمر" وما قد يكون مجرد وجود ذهني يحاول أن يشق طريقه إلى واقع معاش. ومن المؤسف أن الدراسات الإسلامية المعاصرة لفكرة الواقع وما يعنيه وما يندرج تحت مفهومه وما يتعلق به بالتالي ما يمكن أن يُحدث تأثيرا فيه، دراسات تتسم بالفقر إن وجدت أو التقليد للغرب وتبين مفهومه للواقع ونفس الأمر.

وأما "**كلية النص**" فإننا في وحدة النص القرآني الكريم البنائية نجد كثيرا من الآيات التي تتعلق بالجزئي وبالتفصيلي، كما نجد آيات تتعلق بالكلي والغائي والمقاصد. والمنهج يقتضي على الدوام فهم الجزئي في دائرة الكلي وفي إطاره وإلا فقد يعود الفهم الجزئي على الكلي بالإبطال أو التناقض أو ما شاكل ذلك. وأفضل وأدق ما يعين على القيام بهذه الخطوة المنهجية سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم التي مثلت وتمثل منهجية كاملة للربط بين قيم القرآن الكريم وكلياته وغاياته ومقاصده وواقع معيش عاشه رسول الله صلى الله عليه وسلم في مجتمع متكامل متنوع. فذلك هو الذي سوف يساعد العقل المسلم على تحقيق هيمنة النص القرآني على أي واقع في سائر تضاريسه وجوانبه وقضاياه وليتحقق ذلك فإن المطلوب الآن "**فعل إنساني**" يتسم بالوعي والإرادة مع الفعل الإلهي الذي حقق تلك الدفعة الأولى لإخراج الناس من الظلمات إلى النور بالكتاب المنزل والنبوة الخاتمة، وتأليف القلوب، فهل يكفينا ضمن الواقع الراهن أن نسترجع ثمرات ما كان من اجتهاد بشري لأسلافنا في القرون الأولى لعصر الرسالة ؟ فنعيد تطبيقه كما هو ؟ أم أن ثمة واقعا متغيرا يتطلب اجتهادا جديدا لا بد منه ، منطلقا من كتاب الله وبيانه النبوي ومعطيات واقعنا، وكيف نوجد المناخ المناسب لهذا الاجتهاد ؟ وإلى أي مدى يثير هذ ا الواقع المتغير إشكاليات جديدة حقا ؟ أي إشكالات جديدة لم تطرح سابقا ؟ وهذا أمر

يتطلب الكشف عن النسبي المتغير بالمطلق القرآني باعتباره الكتاب الصالح المطلق لكل زمان ومكان والمهيمن على الصيرورة التاريخية والاجتماعية.
قد لا يكون لكل هذه التساؤلات والفرضيات أدنى قيمة تذكر لو كانت متغيرات الواقع كمية وليست كيفية، أو هي في الدرجة وليست في النوع بحيث يستتبعها تغير نوعي في مناهج البحث وضوابط الاستقراء والاستدلال وفهم الظواهر إنسانية كانت أو طبيعية !!

إن الذين يقولون بأن متغيرات واقعنا هي كمية في الدرجة ، وليست كيفية أو نوعية يخلدون بطبعهم إلى نظرة " **سكونية** " لاترى تأثيرا للزمان والمكان ، فلا يتجاوز نشطهم الفكري جهد القياس برد إشكاليات الحاضر إلبى معالجات الماضي ، وباتباع نفس القواعد السابقة في الاستقراء والاستدلال ، فنطاق البحث . عندهم . لايمتد إلى خارج الظاهرة المتعينة التي تُجتزأ من شمولية العناصر المكونة للواقع ويكون الجواب أيضا مجتزا من شمولية الكتاب والسنة.
إن هذا الأسلوب يتعارض مع أسلوب النظر إلى الواقع في شموليته الموضوعية والكتاب الكريم في كليته الكاملة وكذلك السنة في ضوابطها المنهجية ، فالنظرة الكلية إلى الواقع لا تكافئها إلا النظرة الكلية للكتاب والسنة ولا تواجه في إطار الفقه الانتقائي التجزيئي.

تاسعاً: نحو نظرة كلية شاملة للوحي والواقع:

ولكن على ماذا ينبغي أن تستند هذه النظرة الكلية الشاملة للوحي والواقع والتي تقول أيضا بالتغير النوعي والكيفي ؟
قد سبق أن كشف لنا القاضي الفقيه وعالم الاجتماع والتاريخ العلاّمة عبد الرحمن بن خلدون عن أسس العمران البشري وفق المؤثرات البيئية وفي إطار المجتمع الرعوي والزراعي والصناعي اليدوي ، أو بالأحرى مجتمع الاقتصاد الطبيعي وكل ذلك عبر الاستقراء العقلي للعوامل المؤثرة في التقدم والانهيار في مراحل (النشأة والنضج والشيخوخة).

ثم كشفت لنا الدراسات الغربية المعاصرة عن أسس العمران الصناعي حيث تجاوز الإنسان مرحلة العمران الطبيعي بعد أن مارس سيطرته على ظواهر الطبيعة باكتشافه لقوانين تفاعلاتها وخصائصها وصولا إلى استبدال قوة العمل اليدوي بقوة البخار ثم الطاقة بأشكالها النفطية والشمسية والنووية وبتحكم تقني شمل استخدام الذبذبات الصوتية والصور ، فتغير موقع الإنسان في العملية الإنتاجية من المهارة الحرفية اليدوية إلى التأهيل العقلي العملي.

هذا المتغير النوعي والكيفي في طبيعة العمران البشري أدى إلى مواضعات أخرى في الفكر الإنساني والعلاقات الاجتماعية تواضع عليها المعاصرون بطريقة تختلف عن منطق العمران الطبيعي ، إذ اختلفت نظرة الإنسان بناء على ذلك إلى نفسه وإلى علاقته بالكون الطبيعي وعلاقته بمجتمعه وكذلك تغيرت نظرة الإنسان . الغربي خاصة . إلى منظومة القيم بنسبية الأخلاق وخضوعها للعوامل والمتغيرات الاقتصادية وخروجها من دائرة الثوابت.

obeikandl.com